

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة الإسلامية

أو الطوفان

الحمد لله رب العالمين،

إنّ من اللّوثات الفكرية التي أصابت العالم أجمع جراء طغيان قوى الكفر والشرّ فيه، هي أنّ الناس لا يزالون مخيّرين في الدنيا، بين اتباع الحقّ وركوب الباطل، وأنّه لا يحقّ لأحدٍ أيّاً كان اسمه أو رسمه، أن يفرض على أحد شيئا من اعتقاد أو سلوك، وإن كان هذا الاعتقاد أو السلوك هو الحقّ المنزل من عند الله، حتى نسبوا ذلك "المنهج التخييري"، إلى دين الله تعالى ودعوة أنبيائه عليهم السلام!

فصوروا أنبياء الله بصورة مجانبة للحقيقة والصواب، وجعلوهم أشبه بأهل الوعظ والإرشاد، الذين لا سلطان لهم على الناس بحال، أو في أفضل أحوالهم، كالساسة الموجِّهين أو رؤساء الأحزاب المعارضين، في كونهم أصحاب رسالة مناوئة لمبادئ أقوامهم، إلا أنهم لا يملكون في نفس الوقت، إلا أداةً واحدة لتغيير عقائد هؤلاء الأقوام أو واقعهم، وهو ما يعرف الآن بوسائل التغيير السّلمي، وذلك عن طريق عرض مناهجهم على النّاس، وترك النّاس يختارون بينها وبين غيرها، دون أي وسيلة للضغط عليهم أو إجبارهم، حتى وإن كانت المناهج الأخرى المخيّر فيها، هي عين المناقضة لمناهج الأنبياء، ومَن بعدهم مِن الساسة الراضين بالتخيير.

فلما استفاقت طائفة من هذه الأمة، ورفضت هذا المنهج المعوجّ في التخيير بين الحقّ المطلق والباطل المحض، كانت قد أصابتهم شائبة من تلك اللّوثة

الفكرية إلا من رحم الله، فاعتقدوا أن النّاس مخيّرون في داخل دائرة الحق، بين ما هو معروف وما هو منكر من الأقوال أو الأفعال! بمعنى أنهم اكتفوا باستبعاد الكفر الصّراح من دائرة التخيير، ثم أبقوا في داخلها صنوفاً متنوعة من البدع والنفاق، التي لا يميز كثير من المنتسبين إلى الإسلام كنهها، بل ويعتقدون في بعضها أنها عين السنّة والاتباع، وأنّ ما عداها هو من الغلوّ والشطط والتنطع في الدين.

ونسي أولئك المخيّرون الجدد، أن الأمة التي تمسكت باسم الإسلام، قد خرجت بفعلها عن جل أوصافه، فما بات التخيير في ذلك الواقع الجديد ممكنا، بل صارت القاعدة المطردة، أن كل تخيير للناس مؤداه إلى ضلال، إما في الحال وإما في المآل.

ونحن إذ نعالج في هذه الأسطر أصل القضية، أعني قضية التخيير، فإننا نقول:

إنّ دعوة نبي الله نوح عليه السلام، كانت قد اتّخذت ومنذ اللّحظة الأولى سياسة مخالفة لمنهج التخيير، بل اتسمت في المقابل بالإنذار المبكر والصريح من عاقبة المخالفة والحيدة عن الحق

قال تعالى: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**} [هود: 25-26].

يقول الشوكاني رحمه الله: "وجملة: إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم تعليلية، والمعنى: نهيتكم عن عبادة غير الله لأني أخاف عليكم، **وفيها تحقيق لمعنى الإنذار، واليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان**".

و"أو" في كلام الشوكاني هاهنا تفيد الجمع بلا شك، إذ أنّ العذاب المتوعد به من قبل نوح عليه السلام يشمل الأمرين، يعني عذاب النار يوم القيامة، وعذاب الإغراق بالطّوفان في الدنيا، والعذاب الواقع بهم في الحقيقة قد شملهما كذلك، قال تعالى: {**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا**} [نوح: 25].

ومما يزيد الأمر وضوحًا، أن الصراع لما احتدم بين نوح وقومه، واقترب موعد "الطوفان"، تعالت اللّهجة التهديديّة من نوح إليهم، بل وتخلّى نوحٌ نهائياً عن أسلوب المجادلة المعهود عنه، لاسيما بعد أن أخبر وحيا أنّه لن يؤمن من قومه بعد اليوم إلا من قد آمن...

فكان مما جاء من تهديده لقومه قوله تعالى: {**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**} [هود: 38-39].

ففي هذه الآية للمتأمل، نسف لمنهج التخيير المزعوم في الدعوة، وفيه من النديّة والمجازاة بالمثل ما فيه، بل إن هذه اللّهجة التحذيرية الصارمة من المتبوع، لتتهاوي أمامها صروح المؤصلين لمعالم الدعوة التخييرية الجديدة، فالتوعد بالخزي والعذاب عندهم، ليس من الأدوات السياسية ولا الدعوية المناسبة لهذا الزمان، ولا هي بالموصلة إلى المقصود كما زعموا، بل هي –على العكس- دليل على ضعف الحجة عندهم، فكان لسان حالهم ولازم قولهم، اتّهام نبي الله نوح بالعدول إلي المفضول وترك الفاضل المؤثر!

ثم جاء "الطوفان"، ونجت السفينة، واستقرت على "الجودي"...

ولم يتأمل دعاة المنهج التخييري الحكمة الحقيقية من اشتهار أمر طوفان نوح عليه السلام، وبلوغه خبراً متواترا ثابتاً، ومضرباً للأمثال للناس حتى هذا الزمان، ولا تأملوا كون الجبل المسمى بالجودي علامة بارزة في تاريخ البشرية، ولا كون سفينة نوح عليه السلام لا تزال محطاً لتنقيب الباحثين عن الآثار حول العالم من كل الأقطار، فتناقضوا، ولم يوفقوا بين نتاجهم السياسي وبين ما يتداوله البشر من حقائق علمية وموروث حضاري وعادات اجتماعية مستقرة.

ولقد بلغ من إيمان الناس على اختلاف عقائدهم بهذه الحقائق، أن قام أحد رجال الأعمال الأثرياء من النصارى ويدعى دانيال مك كيفين، برصد منحة مقدارها

تسعمائة ألف دولار أمريكي لأي فريق علمي قادر على البحث عن سفينة نوح عليه السلام.

وما ذاك كله إلا لأمر قد قدره الله عز وجل من أمر السفينة وذكره في كتابه، وهو قدر السفينة أن تبقى آية ظاهرة وعلامة بارزة في حياة الناس، قال تعالى: **{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}** [العنكبوت: 15].

يقول الطاهر بن عاشور: "وَقَوْلُهُ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ الضَّمِيرُ لِلسَّفِينَةِ.

وَمَعْنَى كَوْنِهَا آيَةً أَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ الطُّوفَانِ عَذَابًا مِنَ اللَّهِ لِلْمُكَذِّبِينَ الرُّسُلَ، فَكَانَتِ السَّفِينَةُ آيَةً مَاثِلَةً فِي عُصُورِ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بَعْدَ نُوحٍ مَوْعِظَةً لِلْمُكَذِّبِينَ وَحُجَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ بَقِيَّةَ السَّفِينَةِ إِلَى صَدْرِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «قَالَ قَتَادَةُ: بَقِيَتْ بَقَايَا السَّفِينَةِ عَلَى الْجُودِيِّ حَتَّى نَظَرَتْهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ».

وَيُقَالُ إِنَّهَا دَامَتْ إِلَى أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ غَمَرَتْهَا الثُّلُوجُ.

وَكَانَ الْجُودِيُّ قُرْبَ (بَاقِرْدَى) وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ بِالْمَوْصِلِ شَرْقِيِّ دِجْلَةَ (وَبَاقِرْدَى بِمُوَحَّدَةٍ بَعْدَهَا أَلِفٌ ثُمَّ قَافٌ مَكْسُورَةٌ وَيَجُوزُ فَتْحُهَا وَدَالٌ فَأَلِفٌ مَقْصُورَةٌ) وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَمَرِ "وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ".

وَإِنَّمَا قَالَ لِلْعالَمِينَ الشَّامِلِ لِجَمِيعِ سُكَّانِ الْأَرْضِ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُشَاهِدْ بَقَايَا سَفِينَةِ نُوحٍ يُشَاهِدُ السُّفُنَ فَيَتَذَكَّرُ سَفِينَةَ نُوحٍ وَكَيْفَ كَانَ صُنْعُهَا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ لِإِنْجَاءِ نُوحٍ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ نَجَاتَهُ، وَلِأَنَّ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِهَا يُخْبِرُونَ عَنْهَا وتنقل أَخْبَارُهُمْ فَتَصِيرُ مُتَوَاتِرَةً" [التحرير والتنوير 20: 223].

ولو أنهم تأملوا في كل ذلك، لأدركوا أن الطوفان هو علامة واضحة على بطلان مبدأ التخيير في الدعوة بين الحقّ والباطل، فهو الأثر والنتيجة المترتبة على المخالفة، وهو الدليل على كون المخالف معاقبا في الدنيا قبل الآخرة

وليس مخيرا فيها، وأن الجبل هو علامة العصمة والنجاة من العذاب لمن آمن واتبع، وأن السفينة هي الشاهدة أبداً على حقيقتين هامتين:

أحدهما: أن النجاة في الدنيا مختصّة بمن وافق واتبع الحقّ على عكس من خالف.

ثانيهما: أن القلّة هي وصف مطرد في الناجين من العذاب في كل زمان ومكان، وأن الكثرة هي الهالكة فيهما.

بل لو ظنّ ظانّ أنّ نوحاً عليه السلام لم يكن يعرف أمر الطّوفان قبل مجيئه لاتّهم نفسه بالجهل قبل أن ينسب إليه نبيّ الله نوحا، ولو ظنّ أن نبيّ الله نوحاً كان يعرف أمر الطّوفان وكتمه مطلقا عن الناس في زمانه، حتى يظلّ متحليّاً بمنهج التخيير، متجنبا منهج الإرهاب الفكري البديل، لكان متهماً للنبي عليه السلام بالغشّ والخداع لمن أرسل لهم ابتغاء تحسين صورته أمامهم، وهو في الحقيقة منزّه عن ذلك، ناهيك عن أنّ لفظ القرآن فيه دلاله صريحة على كون التهديد بالعذاب قد صدر منه في مقابله السخرية التي تلقاه بها الناس، وذلك أثناء قيامه بصناعة السفينة.

ولقد أعلم الله نبيّه بأنّ العذاب المنتظر لقومه بعد عصيانهم إنما هو الغرق في قوله تعالى: {**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**} [هود: 37].

وخلاصة القول أنّ منهج تخيير الناس بين الحقّ والباطل لم يكن من أسلوب نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، فلم يقل لهم على سبيل المثال: إنني قد جئت بالحقّ وإن الملأ منكم يدعونكم إلي الباطل وأنتم مخيرون بين اتباعي أو اتباع الملأ منكم، بل وحتى لم يقل لهم: إنّكم إن اتبعتموني أصبتم وإن اتبعتم الملأ منكم فقد أخطأتم وخالفتم الصواب، بل ولم يقل لهم إنكم إن اتبعتموني نجوتم وإن خالفتم واتبعتم الملأ منكم فحسابكم على الله وقد أديت ما علي وأنتم مخيرون في ذلك، بل قال لهم وبكل وضوح ما معناه: **"إما أنا وإما الطوفان"**.

ولو ظهر في زمان نوح عليه السلام من ينادي بمبدأ حرية الاختيار لقوم نوح عليه السلام، وأنّ نوحاً هو من البشر الداعين إلى منهج الحقّ، ولكن ليس له أن يُجبر الناس على اتباع دعوته، فهو كافرٌ بدعوة النبي وإن كان يصفها أنها دعوة الحق في نفسها.

فإن قال قائل: إنكم أيها الغلاة المتنطعون، قد اعتددتم على تنزيل آيات الكفار والمشركين على مسلمي هذا الزمان، فلم تراعوا الفرق أبدًا بين هؤلاء وهؤلاء.

قلنا: إنّ وصف النّاس بالإسلام في هذا الزمان لأنهم يقولون "لا إله إلا الله"، لا ينبغي أبدًا أن يظلّ عائقاً عنيداً وسدّاً منيعاً أمام رؤية الأمر على حقيقته أو وصف الواقع بما هو أهل له.

ذلك أنّ هؤلاء الناس الذين يقولون "لا إله إلا الله" قد وقعوا في ألوانٍ من الشّرك بكل مستوياته، كشركِ المسألة والتّوسل والدعاء، وشرك الطّاعة والحكم والتشريع، وشركِ المحبة والنّصرة والولاء، ولئن ظللنا نصف الناس اليوم بالإسلام فقط دون وعي بحقيقة ما وقعوا فيه من ألوان الشرك، إنا إذاً لبعيدون كل البعد عن الواقع والحقيقة، ولراضون بالغفلة والجمود دون السبر والتحقيق، وهذا ليس من شيم المؤمنين.

فإنّ النّاس اليوم بحق هم كإبل مائة لا تكاد تجد فيهم راحله، وهذا يقرب واقع الناس اليوم من واقع الأنبياء مع أقوامهم فيما مضى، إذ أنّ من يفهم منهم دعوة الأنبياء بحق اليوم هم القلّة القليلة، وغاب في مقابل ذلك، الواقع الإسلامي المتصور في عهود الصحابة ممّن رباهم النبي صلى الله عليه وسلم، أو عهود من أسلم في زمن الخلفاء الراشدين مع توافر الصحابة الكرام ولاةً وحكاماً وقادةً للجيوش في أمصار المسلمين، ولا في عهود جيل تربي في واقع جهاد الفرس والروم وفتوح الشام والعراق وخرسان، وظهور سلطان المسلمين وبلوغه إلي الأندلس غرباً في زمان الأمويين، ولا في عهود تنافس فيها العلماء بحرية، وتناظروا وتناظر أتباعهم من بعدهم في مسائل الفروع بعد أن صارت

مسائل الأصول مستقرة في واقع الناس، فلا بعثية ولا علمانية ولا ليبرالية ولا ديموقراطية ولا غيرها مما يناقض أصل التوحيد.

ولو أنك أردت التسليم بحقيقة هذا الواقع المعاش حاليًا، فاستمع بتدبر وتفقه فيما قاله النبي صلى الله عليه وسلم:

عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، - قَالَ عِمْرَانُ فَلاَ أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ" [البخاري 3693، مسلم 6638].

يقول ابن حجر: "واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا وأطلقت المعتزلة ألسنتها ورفعت الفلاسفة رؤوسها وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيرا شديدا، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله صلى الله عليه وسلم: ثم يفشو الكذب ظهورا بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان" [فتح الباري 7:6].

فالله المستعان على ما أصاب ذلك الزمان الذي نحن فيه من ألوان الكفر والزندقة والإلحاد، وقد تشرّب الناس جلّ هذه العقائد المنحرفة وتأثروا بها، ومن نجا منهم من كل ذلك انضمّ إلى أحد التيارات الإسلامية المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

وإلي حين الرجوع للواقع الإسلامي الصحيح، علينا جميعاً أن نتواطأ على نسف مبدأ تخيير الناس للوصول إلى رضاهم من نفوسنا، وألا نخدع هؤلاء الناس أنفسهم بذلك الأمر لا تصريحاً ولا تلميحا، بل علينا أن نواجههم بحقيقة ما هم عليه من الإعراض عن الدين، وحقيقته ما نحن عليه من التمسك بهذا الدين، بصفائه ونقائه وشموليته، بغير شائبة من شرك أو ضلالة أو بدعة، وأننا على استعداد كامل للوقوف في وجه كل من يثنينا عن عزمنا في إظهار

دين الله على الدين كله، وأننا ماضون في قتال أهل الزيغ والضلال حتي تنفرد سالفتنا أو نهلك دون هذا الأمر.

وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبــه

أبو عمرو الكناني

تحميل المقال بصيغة doc

http://www.gulfup.com/?ezeomk

تحميل المقال بصيغة pdf

http://www.gulfup.com/?WrrJEg



@3bwaLaseqa